قصة مترجمة

أم من الجحيم

مرسيليا ، ذلك الميناء العظيم الذي يؤمه آلاف السياح والبحارة كل يوم ، ذلك الميناء الذي يجمع بين الفضيلة والرذيلة ، فبجانب كنائسه الأثرية ، ورهبان الكبوشيين الأتقياء ، تقع الأزقة المظلمة حيث تمرح الرذيلة في واد خصيب مفعم بالغانيات اللواتي يبعن لغويين وأجسادهن ، حيث يشرى الهوى الرخيص ، وتباع الأفئدة والأجسام . ومن هذه الأزقة المظلمة ، زقاق النساء ، مُتَنَفَّس كئيب فيه زمرة الساقطات ، وقد جذب اليه رواد اللذة البهيمية ، فتراه بحاناته الصاخبة ، ودور اللهو المنتشرة على جانبيه ، كأنه مرتع الشيطان ، أو قطعة من الجحيم . وفي منتصف ذلك الشارع يقوم منزل سكنته أسقط النساء أخلاقاً ، وأرذلهن طباعاً ، وأبعدهن عن الانسانية صفات ، كما أنه أردأ المنازل بناء ، وأوحشها مكاناً فكأنهما صنوان ، هي من ناحية الأخلاق ، وهو من ناحية البناء . إنها « جورجيت » دنت على الأربعين ، ممتلئة الجسم متوسطة القامة ، تحمل في وجهها طابع جمال قديم أفسدته الخمور وحياة اللهو والمجون . ولتلك المرأة عشيق يدعى « جون » وهو بحار قديم ضخم الجثة ، قاسد الفطرة ، ذو الطينة ، ذا وجه منقض قبيح . لبست فيه [illegible] هي بقية معركة أصيب فيها بطعنة سكين ، وهو فوق ذلك من الرجال الذين اتخذوا من قوتهم وشراستهم سبيلاً للتسلط على النساء الساقطات وابتزاز المال منهن .

وفي الغرفة الوحيدة بذلك المنزل التي يمكن أن تكون مسكناً لآدمي ، أو مأوى لحي يرزق أو لا يرزق ، جلست جورجيت الى جانب عشيقها جون يتناجيان الغرام مع كؤوس من خمر النبيذ ، وتجول في ذهن كل منهما أفكار عتيقة ، طالما مني كل منهما نفسه بتحقيقها ، يحدوهما اليأس لحظة ويدفع بهما الأمل أخرى . أما تلك الأحلام والخيالات فكانت لكل منهما خاصة بنفسه .

— لم هذا السكوت ياجورجيت .

— أفكر . . . لا . . . لا ياجون . . . ليس ببالي شيء .

— إذن ، فماذا ؟ أجئت لأراك كتمثال صامت ، أم هناك رجل آخر ! ! !

— كلاَّ ياجون — أقسم لك إني لم أفكر في رجل سواك ولم يخطر بفكري إنسان غيرك

وهنا يميل جون الى الوراء في مقعده بارتياح ويتناول كأسه فيشربه حتى آخره ، ويمسح شاربه الكث بطرف كمه القذر .

— اليك مفاجأة سارة ، سوف تتزوج ياجورجيت .

— تتزوج ! أتهزل أم لعبت برأسك الخمر ؟

— فضحك جون والطلق يقول بصوته الأجش ، كلاَّ لا تلعب برأسي الخمر ، ولكن جمالك الذي لعب بقلبي . قلبي الذي لم تتمكن مخلوقة سواك من الدنو منه ، جمالك قد ملك عليَّ مشاعري وطار بلبي ، لست هازلاً ياجورجيت — أتقبلينني زوجاً .

— بالطبع ياجون . فان نفسي لا تتوق إلى أكثر من هذا . . . ولكن . . .

— ولكن ماذا .

— لا بدَّ لي من الذهاب إلى أمريكا .

— أمريكا ، وما علاقتك بأمريكا ، وقد ولدت وعشت في مرسيليا فلم تغادريها قط ؟

— إنك لا تعلم ياجون ، فهناك دافع قوي يرغمني على الرحيل في أقرب فرصة .

وعلى بعد خمسة آلاف ميل من مرسيليا ، جلست فتاة في هايد بارك بأمريكا تردد تلك الكلمات « لا بدَّ لي من الذهاب إلى مرسيليا » . وهي فتاة طويلة القامة ، ممشوقة القد هيفاء ، ذات عينين زرقاوين فيهما سحرٌ ودلال ، ولها شعرٌ أصفر جميل مسترسل فوق كتفيها كأنه خيوط من الذهب ، وفم كالياقوت إذا أنتر فعن أسنان كأنها اللؤلؤ ، ووجه باسم ضحوك مليء بحرارة الشباب ، وبجانبها جلس « ديك موريس » وهو فتى وسيم الطلعة ، مهذب الأخلاق ، مثقف راقي التعليم ، بسم له الحظ فجمع الى الشباب والمال سعادة الحب وراحة البال فهو « وتيرز » متطابقان .

— أريد أن أرى مرسيليا يا ديك .

— لا مانع عندي يا عزيزتي تيرز ، فلنمض شهر العسل هناك .

— لا ياديك ، لقد أسأت الفهم ، إني أريد أن أذهب الى مرسيليا بمفردي قبل الزواج ، لأن هناك أمراً هاماً يدعوني إلى ذلك .

— ولكني ما سمعتك يوماً تذكرين مرسيليا ، ولم أعهدك أبداً تتوقين للذهاب إليها .

— لقد علمت أشياء كثيرة بعد وفاة المرحوم والدي ، فإن والدتي يا ديك ما زالت حيَّة ترزق .

— ما زالت حية ، وتقيم بمرسيليا أكانا يعلم أنك بقية الأم منذ فجر حياتك .

— هكذا كنت أعتقد ، ولكن ظهر لي من مخابرات برلين أطلعت عليها بعد وفاته أن لي أمًا ! أمًا لا تزال على قيد الحياة ، وتعيش في مرسيليا ، فصممت على أن أرى تلك المخلوقة التي أوجدتني في الحياة . أراها يا ديك فأنعم بحظها وحنانها وقد حرمت منهما منذ طفولتي .

— ولكن ما السبب الذي دفع والدك إلى إخفاء تلك الحقيقة عنك .

— لست أدري ، وظني أن كان هناك خلاف شديد بين أبي وأمي دفعه إلى إخفاء أمرها عني وإبعادي عنها ، وقد ظهر لي ذلك من خطاباتها وتوسلاتها إلى والدي ، واسترحامها إياه ورجائها الحار الشديد أن تراني . أليس من واجبي بعد كل هذا يا ديك أن أراها ؟

— أتعلمين أين تسكن .

— نعم ، إنها تسكن المنزل رقم ١٦ بزقاق النساء بمرسيليا .

* * *

وفي المنزل رقم ١٦ جلست جورجيت بجانب عشيقها يتبادلان الحديث .

— أما زلت مصرة على السفر لأمريكا .

— بكل تأكيد يا جون .

— إذن فلنتزوج أولاً ونرحل سويًا لتمضية شهر في ربوعها .

إرتسمت على وجه جورجيت أمارات الفرح والانشراح ، وارتمت بين يديه تقبله في حرارة وحنان .

— أحقًا ياجون سنصبح زوجين شرعيين ، ونقف أمام القسيس ، أنت بثوبك الأسود ، وأنا بثياب الزواج البيض ؟ . . . ثم تنحدر على خديها دمعة كبيرة .

— كفى هذراً ، إذهبي فأتنا بالخمر والنبيذ لنشرب نخب زواجنا .

تقبله جورجيت وتهرع إلى الخارج لتشتري خمراً ونبيذاً بينما ، ينتظرها جون مهللاً مستبشراً لاعتقاد شقيته انتظاراً للخمر في لهفة ظاهرة .

— إنك تضحكيني . ما بالك تطرقي الباب ، أذلك من عادتك . . . ادخلي

تدخل تيريز فيهولها منظر المنزل القذر وبشاعة الرجل الذي قزع من مكانه حال رؤيتها كأنه ذئب جائع أنقض على فريسته . فتراجعت تيريز الى الوراء بخطى مرتبكة ، وقلب ملؤه الشجون ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط كأنه كير الحداد ينفخ بشدة ، وقالت لي في ارتباج :

— أهذا منزل مدام جورجيت

— «هاها ، وماذا تريدين من جورجيت» تعالي يا فتاتي» . واندفع نحوها مسرعاً قبل أن تولي منه وضمها بين ساعديه القويتين ، فضت تصرخ وتستغيث ، ولم يعرها ذلك الوحش الآدمي وأتى بها على السرير وارتمى الى جانبها محاولاً امكانها .

— « اتركها يا وغد » — فالتفت جون فرأى جورجيت على عتبة الباب وبيدها زجاجة الخمر تهدد بها وتتوعد وعيناها تشتعلان غضباً وغيرة وقلبها يخفق بالندم والحسرة .

***

ترك جون تيريز وتحرك نحوها في هدوء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة .

— أتحدثينني بهذه اللهجة يا ساهرة . ويرفع يده ويهم بلطمها فتهوي على رأسه بالزجاجة فتتحطم ويسيل منها الخمر مختلطاً بدمه . فيفقد الوعي وتجره جورجيت الى الخارج وترصد الباب ، ثم تعود الى الفتاة تريد افتراسها وتتمنى لو تمزقها إرباً إرباً . فقد كانت الهيام بها عشيقة أخرى لجون ، وهالها أن تجرأ على زيارته في منزلها .

— وأنت أيتها الفاسقة . . ماذا تريدين ؟

— لا أريد شيئاً يا سيدتي ، لا تسيئي ظناً ، فقد أخطأت منزل مدام جورجيت .

— لم تخطئي ، فأنا مدام جورجيت وماذا تريدين من مدام جورجيت ؟

وتنطلق في قهقهة عالية فتدوي تلك الكلمات في أذني تيريز فتنظرت الى المرأة بعينين يخال إليك أنهما تصلبتا ، وظلت كذلك برهة كأنها الدهر ، وارتمت على السرير ودفنت وجهها في الوسادة . وجسدها البض يرتجف من الانفعال ، وتتمتم بكلمات كالذهول . . .

أ أبي هذه العا . . . يا لتعاستي ويا لشقائي . . .

— سمعتك تقولين أمي . . فما بال والدتك .

— ويلاه . . . أنت أمي .

— « أنا أمك ! أأنت تيريز ، حبيبتي تيريز ، تعالي يا بنيتي لأضمك وأقبلك ألف قبلة فأروي ظمئي ولوعتي من وجهك الفتان وعينيك الجميلتين . يا لها من حلاوة اللقاء بعد طول الحرمان » وتندفع نحوها فاتحة يديها لترتمي في حضنها فتدفعها تيريز بالتبرز والاحتقار فتدرك جورجيت الحقيقة المرة المؤلمة ، وتتذكر أنها عاهر من بنات الشيطان وان تلك الفتاة البريئة الجالسة اليها تأنف من الانتساب اليها وتحمر خجلاً حتى من التفكير في أمومتها .

— يطرق الباب ، ويدخل ديك موريس ، ويتقدم الى تيريز ، مدهوشاً صائحاً . « تيريز ،

كل أصابك يا كروه ، يا إلهي ! ما هذه الغرفة ، ومن تكون المرأة ؟

— هي أمي يا ديك . ويلاه لقد تحطم مستقبلي واسودت أيامي ، فلن أستطيع بعد أن علمت تلك الحقيقة أن أقرن اسمي باسمك .

— دعينا من كل هذا يا تيريز ، ولا تكوني عنيدة ، فإني لك لا يقوم في سبيله شيء

— كلاَّ يا ديك فلن أرضى لك بهذا ، لقد كان المرحوم والدي محقًّا في ابتعادي عنها ليتني ما رأيتها وما علمت مكانها .

— أمازلت أبوك يا تيريز ؟ وتنظر الى ابنتها نظرة تنطوي عن أمر خطير .

— نعم ، رحمه الله

— أما وقد مات فلا داعي لاستمراري في تمثيل هذا الدور ، وتحطيم حياتك ، فاطمئني يا صغيرتي ، فاني لم أكن لك أمًّا ولم يكن غرضي الاَّ ابتزاز المال من والدك .

— أحقًّا ما تقولين ؟

— نعم ، أيتها الصغيرة ، كنت أعمل خادمة عند والدتك وألمست بالشقاق الذي كان بينها وبين أبوك ، وبعد موتها اغتنمت الاستفادة من هذا الموقف ماليًّا . أما الآن فقد انتهى دوري فاذهبي يا صغيرتي ، فان والدتك كانت امرأة من أشرف العائلات وأرفع من أن تحيا هذه الحياة التي أحياها .

انحدرت على خدي تيريز دموع الفرح وصاحت مهللة : أسمعت يا ديك ؟ انها القصة .

ابتسم ديك وقبلها ولكن لم يخدعه هذا التمثيل من جورجيت ، فان الشبه بين الأم والابنة كان أقوى من أن يحتمل الشك . تقدم المخطبيان الى جورجيت لمصافحتها وفي عين تيريز نظرات الفرح والانشراح ، وأما ديك فقد حدجها بنظرة كلها إعجاب وتقدير لتلك التضحية النبيلة .

* * *

وفي الصباح ذهب ديك الى منزل جورجيت ليشكرها ويقدم لها مساعدة أو ليبحث لها عن عمل ، فوجد بالباب جمعاً يتصايحون ، فتقدم من أحدهم سائلاً ، فعلم أن جورجيت الفاتنة قد انتحرت لأسباب لا يعلمها أحد . فيعود ديك متثاقلاً مطرقاً برأسه ويذكر أن هذه المرأة الساقطة ، إنما كانت تحمل بين جنبيها قلباً من ذهب .

محمد مبروك مظهر